

التلقي وأقطاب التصورات النقدية المعاصرة

د. نورالدين بلاز

جامعة البليدة 2

Résumé :

La réception de la lecture est une puissance mentale, un capital de connaissances, un champ d'expérience très présent et une harmonie positive qui lie ces éléments et les rend efficaces dans divers domaines.

Avec le temps les facteurs les plus importants sont écartés malgré la relation qu'ils entretiennent avec le texte ; et ni l'auteur, ni le facteur socio-psychique ne pourra expliquer le sens du texte.

Après la venue du Structuralisme, est apparu un problème fondamental en rapport avec des études qui s'occupent de la structure textuelle en étudiant chaque élément à part sans néanmoins lui conférer l'importance qu'il mérite, alors que en réalité tous ces éléments devraient respecter la structure générale du texte, sa cohésion.

ملخص:

إن التلقي قدرة ذهنية، ورصيد معرفي وافر، وخبرة حاضرة، وتفاعل إيجابي يمزج كل هذه العناصر المهمة ليكون في أي مجال ناجعا.

وبعد فترة من الزمن أقصيت أهم العوامل التي لها علاقة وشيجة بالنص، وغدا النص سجيناً مقفلاً في بنيته اللغوية. لا المؤلف، ولا العوامل النفسية والتاريخية والاجتماعية والثقافية والدينية، ولا القارئ بوسعهم المساهمة في تفسير النص بنية ودلالة.

وحدث التغيير بعدما عجزت البنيوية أن تحيط بالنص إحاطة شاملة، لأن السبب يرجع لتلك النظرة التجزيئية التي عمّرت طويلاً في التنظير الغربي.

لقد جنت عليهم خلافات مجزأة متناثرة لم تعمّر طويلاً، وتوقفت في خط لا يمكن تجاوزه إذا استمروا على هذا الحال. فكانت مقالتي هذه نافذة من خلالها ندرك أهمية ما أقبل عليه

التنظير الغربي من أجل التجاوز والتدارك. و لا يتأتى لهم ذلك إلا عن طريق الانسجام **La**

(Cohésion)

إن التناغم هو الطاقة النافذة و الدائمة في التفسير و البناء لدى المتلقي الباحث.

تمهيد:

إن النظرة التجزيئية للأشياء هي سمة غالبية في الفكر الغربي ، ومؤخرا ظهرت أصوات تدعو إلى الانسجام والاستناد (La cohésion) وهذه الرؤية تظهر قدرة على احتضان كثير من المقاربات اللسانية والنصية عبر التجاوب معها والاستفادة منها ، وإن أهم التقاطعات بين هذه التصورات اللسانية (السوسيرية) و (بروب) في السرديات الوظائف والبرنامج العاملي والمربع السيميائي والبنى السطحية عند (غريماس) واللسانيات التوليدية عند (شومسكي) والفضاء السردى عند (لوتمان)

وتؤكد هذه الرؤية أن هذا التقاطع يشكل بنية ذهنية مجردة فرضت حضورها في جميع المجالات المعرفية والفكرية واللغوية " إن اللقاء في فضاء ذهني معرفي يعكس طبيعة العقل البشري التقابلية ، فلا شك أن البشرية تشترك في مجموعة من المضامين تتنظم على شكل ثنائيات ، وهو ما يوحدنا ويجعل التعايش ممكنا رغم التباين و التنوع " (1)

وبناء على هذه الرؤية التأويلية نستند إلى نموذج تقابلي في الفهم والتأويل أن نبين " كيف يعكس النص المصغر العالم الكبير، وأن يرصد الخطوط والمعايير التي تم تحويل العالم الكبير بموجبه إلى عالم نصي مصغر " (2)

أداة المتلقي الباحث

إن أداة المتلقي في قراءاته لبلوغ مسعاه تكمن في نسبة إلمامه بالعلوم الإنسانية والجهد الشخصي والمغامرة الدلالية، لكنه مع كل ذلك قد لا يوفق ، فالعنى قد يؤرقه ولا يورق له ، فالمتلقي باحث في عالم الكتب شأنه شأن الباحث في الحفريات للاستكشاف والاستكمال ثم أخيرا للإعلام والتعميم.

إن الباحث في الحفريات غالبا ما يجد أشياء ناقصة ومشوهة لعامل الزمن فعندما يكتشفها يعمل من أجل استكمالها " فالمتلقي على شاكلة الباحث في الحفريات فهو أمام أنساق معرفية تؤطر تجربة الفهم وبناء المعنى ، انطلاقا من التقابلات المؤطرة التي تفضي إلى التقابلات المؤطرة داخل النص ، والتي تشكل صورة كلية لشبكات المعنى في نموها وتفاعلاتها " (3)

ولا مناص للمتلقي أن يولي وجهه شطر المناهج و التصورات النقدية المعاصرة ،
فهي ترتد حسب أولوية الاهتمام ، إما إلى قراءة النص بناء على مرجعياته
الاجتماعية أو السياسية أو التاريخية ، وإما إلى الاشتغال وفق منطلقات نصية
بنائية لسانية أو سيميائية أو نحوية أو بلاغية ، وإما إلى جماليات التلقي عبر
تفعيل أدوار القارئ وبلاغات التأويل .

ومن أهم الوسائل التي ينبغي الاتكاء عليها في عملية التلقي هي " الاستفادة
من النظريات

الموازيات النصية كالعناوين والمقدمات والتمهيدات وغيرها لبناء
فرضيات قرائية ،

وصياغة أولية " (5)

إن أداة الباحث القارئ تكمن في حرصه على الأطر المعرفية التي تسمح بتطعيم
وتطوير الأفق في القدرة على التفاعل والتجاوب بشكل إيجابي ، وكل أداة تسهم
في تفعيل عملية القراءة وإنتاج المعنى فهي جديرة باستعمالها ، لأن البحث عن
الحقيقة يتطلب وسائل صحيحة غير مغشوشة ولا مزيفة ، فكلما كانت الأداة
مناسبة كلما كانت العملية أنسب وأرقى لبلوغ المرام. فالقارئ الجيد هو قارئ لا
يستهن في اختيار الأداة في عملية بحثه عن المعاني ثم شحن بطاقته الدلالية
بشكل مطرد.

الانسجام (Cohésion) والتلقي

قامت النظرية السيميائية على اقتراح مؤسس على ملاحظة الظواهر
اللغوية والنصية والمعرفية ثم صياغتها على شكل تصورات ومقترحات ،
وعبر تجريبيها يتضح نقصها أو ضعفها ، كما لا يمكن أن نتصور أن هذه
النظرية وجدت من دون الاتكاء على نظريات سبقت ، بل من مؤسسيها من
كان يشتغل في البنيوية اللسانية .

فالانسجام في العلم بالنص والعلم بفهمه أمر مطلوب ، إن الشمولية تتبثق من
نظرة واسعة وعميقة بأطرافها وجهاتها وأجزائها وماهيتها ، فالإحاطة الشاملة
تصيب الأجزاء المنفصلة أو المركبة ، أما النظرة الأحادية قد تصيب الأجزاء
وهي منفصلة ، ولكن لن تصيبها وهي مركبة .

فأي النظرتان أقرب ؟ المعالجة في كل الحالات أم المعالجة الجزئية التي تكون نتائجها جزئية ، وقد تصلح في أحكام جزئية لا تمت بصلة إلى الوحدة و التكامل.

" إن النص خريطة دلالية لما في العالم ، وكما أن الخريطة صورة هندسية لجغرافية الأمكنة والبلدان ، فالنصوص خرائط موجهة لسالك بلدان المعاني ، ومختزلة لتضاريسها في لغة رمزية دالة " (6)

و يبقى السؤال مطروحا في عالم التلقي و الوظيفة المنوطة به ، وهو كيف يتحول النص إلى موضوع للخطاب ؟ والمعنى إلى معنى المعنى هو الآخر ؟ هي عملية متواصلة لبلوغ جواهر المعاني وجمعها في بلاغة تأويلية محافظة.

الوظيفة والتلقي

تعد عملية التلقي طرفا مهما في تشكيل المعنى " وتبدو الوظيفة هنا نوعية ، تكرر الدعوة لخدمة القارئ وإرضائه " (7) أما النقد فهدفه " إرضاء الإنسان وهو يفكر، الإنسان وهو يفكر بالأدب على وجه الخصوص " (8) وهي وظيفة تمكن القارئ من الاقتراب إلى الأدب ليحصل لديه إدراك يستوعب خصوصيته به.

إن وظيفة التلقي وغايته الفهم ، وهذه الوظيفة معقدة يصعب تشريحها خاصة أن جزءا منها يتعلق بالذاكرة وما تخزنه من معلومات ، ولكي نوضح أكثر لا بأس أن نطرح إشكالا يبين طبيعة الموضوع الذي نبحث فيه .

" قد نفهم من النص مجموعة أشياء ، ننسى بعضها ويبقى بعضها الآخر يعمل في فهم نصوص أخرى ، فكيف يمكننا العثور على معلومات في الذاكرة من أجل استعمالها " (9) ولماذا تحتفظ الذاكرة بمعلومات دون أخرى ؟

وقد لا يعزب عن أحد إدراك أهمية السياق الانفعالي وما له من دور في فهم النصوص ، لأن المعاني التي يشتغل من أجلها المتلقي الباحث هي عصارة تراكمات شعورية ، وهي السمة الغالبة في النصوص الأدبية ، إن لم نقل جوهرها وما يميزها.

" إن الفهم يحركه الاستعداد الإدراكي ، والإحساس بقيمة المعلومة ، ومدى اهتمام المتلقي بفهم معطى أو نص " (10) فاللبس يكتنف مثل هذه العمليات ، لكنها ضرورية ، وتمثل المحور الأساسي للحصول على البطاقات الدلالية من النصوص .

" إن الفهم محاولة جريئة لتحطيم طبقات القشر التي يفصل الذات القارئة عن الحقيقة الموضوعية في النص ، إنه محاولة للقبض على الطاقة الإبداعية التي صنعتها " (11)

كما تستخدم المعارف عند فهم النص على نحو استراتيجي عبر مجموعة من الإمكانيات (12)

- فهم النص بناء على معرفة مسبقة
- بناء معنى أولي ثم اعتماد التعديل و الحذف مع تطور الفهم
- الانطلاق من تمثيلات ذهنية مبنية مسبقا ، وفهم النص تبعا لها
- مراعاة السياق الاجتماعي أثناء الفهم في معانيه وحوافزه وأهدافه
- عبر الفهم يملأ المتفهم البنيات الفارغة في النص المقروء بمعارف مسبقة مخزنة في الذاكرة أو اكتسبت من خلال إدراك بنيات معينة في النص
- مراحل الفهم عند المتلقي
- تتم مراحل الفهم عند المتلقي من خلال مجموعة من العمليات الذهنية وهي
- " (13)

- العفوية: وهي الممارسات والكفايات والعادات والوضعيات التي تسمح للمضامين المقصودة بالظهور أي : مجموع التصورات المسبقة المتقاربة حول معنى النص ، وهي افتراضات معنوية تلقائية.

- الاستكشاف : هو جهد استكشافي ، وهو نتيجة الاستيعاب ومراكمة المعاني ، وتسمى هذه العملية الاجرائية بـ " تبادر المعاني " (14)

- التذكر : للذاكرة دور في تزويد المتلقي بالمعاني ولقد تحدثنا آنفا عن هذا الموضوع

- التوجيه : تتم عن طريق توجيه الفهم نحو إستراتيجية التأويل حسب أهداف القراءة

- الاستحضار : هي عملية مهمة ، كاستحضار المعارف بأنواع تخصصاتها ، وأبعادها الاجتماعية والثقافية ، سواء بطريقة منظمة كما هو الحال في النظام المدرسي ، أو حرة كما هو معهود لدى الباحثين و الكتاب.

- النوع : إن معرفة النص وجنسه عامل مساعد في الفهم ، ويشكل علاقات مع أنواع أدبية سبقت ، وهذا يدخلنا في التفاصيل .

- **الحذف** : تتم بشكل تلقائي أثناء المراجعة أو الجزئية ، حيث يلجأ المؤول إلى تشطيب **الأفهام غير المنسجمة** أي التي تفتقد إلى الاستناد مع النسق الدلالي العام للنص .

- **التركيب** : تتم عن طريق مقارنتها تلقائيا بعرضها على غيرها أو تعميمها ، ونجدها في الدراسات النقدية حيث ينجز المؤولون ' ' **خلاصات تركيبية** " ولعل هذا من أقوى المواقف والاستراتيجيات التي تقدم لنا أفضل النماذج لتأويل النصوص في الممارسة التربوية .

ونتيجة لحصول هذا التصور لدى المتلقي الباحث هو وعي جدير بالاهتمام والتتقيب من قبل المنظرين والنقاد ، وظهور تلك التصورات والتي صارت لها فروع ومذاهب تزود المنظر والناقد بجهاز **مفهومي** يعطي رأيه انتسابا إلى رؤية فلسفية أو إيديولوجية ، ويميزه عن غيره .

إن هذه التصورات هي مرجعية لمحاورة الأدب ومحاورة النقد نفسه ، في ضوء علاقتهما بالفكر البشري ، فترتبت عليها أشكال من البث تراوحت بين أن

تكون (15)

- تاريخا

- تعريفا

- تنظيرا وتبن

إن التقاء هذه التصورات هو التقاء يتم بالتناسب والتناغم (**Cohésion**) في المرجع اللغوي ، فيمد المتلقي الباحث بمصطلحات و مفاهيم يمكنه من شحن بطاقاته الدلالية عبر مراحل بحثه ، كما تمكنه من الحصول على كيان مرجعي متنوع ، يجعل المتلقي في حالة مناسبة لاختيار الأنسب وطبيعة المدونة التي يبحث فيها ، وتفتح له طريق البحث والاستقصاء إجرائيا في مادة النقد والتنظير ، سواء أكانت موجودة في التراث

أم موجودة في الحاضر (16)

التأويل والمتلقي :

إن التأويل هو المرحلة الأخيرة في القراءة ، وثمره جهد ذهني يبذله القارئ في رحلة البحث . وإن اختلاف المتلقين باختلاف مشاربهم وأرصدتهم الثقافية والفكرية والعقائدية فضلا عن الاستعدادات الذهنية عند كل واحد منهم ، هذا التأرجح بين الثابت والمتحول يترتب عن ذلك " أن تأويل نص معين لا يكون مختلفا من مؤول إلى آخر ، وإنما يكون كذلك حتى عند

المؤول الواحد نفسه متى أعاد التجربة مع نص سابق له أن تناوله من قبل " (17)

إن العقبة الأساسية التي حالت دون التمكن من المصطلحات التي تزخر بها الدراسات النقدية المعاصرة هي صعوبة التعامل مع هذه المصطلحات النقدية ، والذي نعرفه لم يتعد حدود الترجمة أو الشرح والتوضيح .

"فأمبرتو إيكو يعتبر التأويل نتاجا لتفاعل يحدث بين القارئ والنص ، وأن طبيعة هذا التفاعل يتحكم فيها كل من النص وثقافة المؤول ، مما يجعل عملية التأويل تخرج بفضل ذلك من إطار مقصدية المؤلف وسيطرته"(18)

إن المتلقي الباحث هدفه هو التأويل ، ويقدر التفاعل بينه وبين النصوص بشكل إيجابي يسهل عملية التأويل ، ويفتح المغلق ، ويزيل اللبس ، ويمكن المنظرين من الصطلح. أريد أن أشير إلى حقيقة أحسبها ذات أهمية بالغة ، وهي أن المنظرين الغربيين لهم قصب السبق في إيجاد المصطلحات في مختلف الاختصاصات ، وليس من السهل بمكان أن يقدموا ما أوجدوه بالبحث و التتقيب على طبق لغيرهم ، مثل ذلك كمثل الاختراعات الأخرى في مجال التكنولوجيا كاختراع السيارات والطائرات والأسلحة والأدوات المختلفة. ولاحظ معي ما قاله (أمبرطو إيكو) " إن التأويل ينبثق من التفاعل بين المؤول و النص ، ولكن نتيجة هذا التأويل تفرضها طبيعة النص وطبيعة الإطار العام للمعارف الموسوعية لثقافة ما ، وفي جميع الحالات فإن هذه النتيجة لا علاقة لها بقصدية المتكلم " (19)

و يبدو لي تطوير المهارات التأويلية التي دعا إليها (روبرت شولز) (20) لا تتعلق بمن يفقد القدرة على التفاعل الإيجابي ، وبمن ينكص في انتقاله من مرحلة لأخرى ، لأن التأويل هي آخر مرحلة في القراءة .

فالتأويل – إذا – يفجر النص من الداخل ويسبر أغواره لينتج نصا جديدا فحواه ضبط البطاقات الدلالية التي من أجلها كتب النص ، هناك المعنى و هناك المقصود من المعنى. والجدير بالذكر أن علماء أصول الفقه في الحضارة الإسلامية قد خصوا بابا عظيما في كتبهم يسمى بـ الدلالات .

الهوامش :

(1) سعيد بن كراد ، السيميائيات السردية ، منشورات الزمن ، الرباط ، 2001 ، عدد 29 ،

ص47

(2) محمد بازي ، نظرية التأويل التقابلي – مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب ، منشورات

الاختلاف ، ط1 ، 2013 ، ص17

(3) المرجع نفسه ، ص20

- (4) المرجع نفسه ، ص20
- (5) المرجع نفسه ، ص21
- (6) المرجع نفسه ، ص28
- (7) **محمد الدغومي** ، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، ط1 ، 1999 ، ص228
- (8) **خلدون الشمعة** ، النقد والحرية ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1977 ، ص193
- (9) **صلاح فضل** ، بلاغة النص و الخطاب ، الكويت ، عالم المعرفة ، الكويت ، عدد 164،1992
- (10) المرجع نفسه
- (11) **Georges Poulet et autres** ، Qu'est – ce qu'un texte ? José Corti ، Paris, 1975, P67
- (12) **هانيه فولفجاج و ديتير فيهفجر** ، مدخل إلى علم النص ، تر : **سعيد حسن البحيري** ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ط1 ، 2004 ، ص 134
- (13) **يحيى محمد** ، منطق فهم النص ، إفريقيا الشرق ، البيضاء ، 2010 ، ص33
- (14) **محمد بازي** ، نظرية التأويل التقابلي ، ص91
- (15) **محمد الدغومي** ، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر ، ص91
- (16) المرجع نفسه ، ص 109
- (17) **محمد السعيد عبدلي** ، المنهج الموضوعاتي — أسسه وإجراءاته — الجاحظية الجزائرية ، 2011 ، ط1 ، ص 193
- (18) المرجع نفسه ، ص197
- (19) **أمبرطو إيكو** ، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية ، ترجمة : **سعيد بن كراد** ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 2000 ، ص160
- (20) **أنظر: روبرت شولز** ، السيميائية والتأويل ، ترجمة: **سعيد الغانمي** ، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1994 ، ص18_17